

الفصل الثاني عشر

قونية

قلقت أفكار الدول لهذه الانتصارات المتوالية ، واختلفت آثار هذا القلق باختلاف الطباع . فأما الطبقة الحاكمة من الإنجليز فإنها تدربت في المهـد على ضبط أعصابها وكبح جماح شعورها ، حتى قيل إن الطفل منهم لا يفطم حتى يعرف الدرس الأول في كبت عواطفه . وذلك هو سبب اتزان عقولهم وهدوئهم في أوقات الخطر . ومع ذلك فقد قلقت الحكومة الإنجليزية وهاها تقدم جيش إبراهيم ؛ لكنها لم تضطرب ، بل ظلت محتفظة بهدوئها ، لأن الذين يقودون زمامها رجال مرنوا على هذه الأخلاق التي وصفناها من قبل . ولذلك ظلت ترقب الأمور وتنتظر ما تتمخض عنه الأيام .

أما الصقالة فليس في مقدورهم أن يضبطوا شعورهم ، وذلك لأنهم قوم سريعو التأثير مندفعون ومعاندون ، تعودوا أن يندفعوا حيث يخشى الملائكة أن يمشوا على مهل^(١) . ولذلك لا نعجب إذا استولى الرعب على مستشاري القيصر عند ما هزم الأتراك في ممر بيلان ، فأصدروا أوامرهـم إلى رجال القنصلية^(٢) بأن يقطعوا صلاتهم بمحمد علي^(٣) . ولما اجتمع قنصل روسيا العام بالباشا اجتماعه الأخير ، بسط له محمد علي آماله بصراحة فقال :

(١) يشير إلى قول بوب الشاعر الإنجليزي « إن الحق يندفعون حيث يخشى الملائكة أن يمشوا على مهل » .
(المرب)

(٢) لم يكن للروسيا بعثة دبلوماسية في مصر .

(٣) قطاوى في كتابه السالف الذكر الجزء الأول ص ٥٣٧ .

« بينى وبين عبد الله خصومة حقة ، ولكنها لا تتعداه إلى الأسرة السلطانية ، وإن كان أهل ديار بكر ولواء بغداد ، والولايات الجنوبية من آسيا الصغرى وبلاد من تركية أوربا ، يهتمهم أن تعظم قوتى ويتسع ملكى . وقد صرح كثير من أولئك الأقوام برغباتهم ؛ ولكننى لا أسمى للجلوس على عرش السلطان رغم على بما يدور فى الآستانة ، وبمقدرة الباب العالى الحقيقية .

« إن فى استطاعتى أن أنزل السلطان عن عرشه بهجمة موفقة يقوم بها أسطولى ، ولكننى لا أحب أن أعتدى على حقوق أبنائه ، لأنهم خلفاء النبى . وليس معنى هذا أننى أرهب جيوش السلطان ، فقد وصل ولدى إبراهيم فى زحفه إلى أطنة ، وستكون أعماله فيها أبلغ أثراً من جميع المناورات السياسية ؛ وذلك لأننا نعيش فى عصر تترك السياسة فيه للظروف حل كثير من المشكلات ، ولا يتحرك فيه الناس إلا بعد وقوع الحوادث .

« وجدير بجلالة السلطان الأعظم أن يتدبر عواقب هذه الحرب التى لا تستطيع قواته أن تخوض غمارها . إنه يسمينى عاصياً وينسى أننى استوليت على مصر بسيفى ، وأن أحداً لا يستطيع أن يخرجنى منها إلا بحد السيف . فأنا تابع السلطان ، ولكننى أحتل مصر بحق الفتح ، وإنى وإن فتحت الشام سأظل تابعاً له ودعامة لعرشه »^(١) .

لقد فرغنا من وصف طباع الإنجليز والصقالبة . أما الفرنسيون فقد امتزجت طباعهم اللاتينية الأساسية بطباع من صنف آخر . فكما أنهم فى مطالبهم تطغى التواكل على الأطعمة حتى تكاد تكون هى كل شىء ، كذلك هم فى سياستهم يغلبون مصالحهم على عواطفهم ، وإن كانوا يهتمون بهذه العواطف التى تشرفهم وتعلو

(١) المصدر عينه الجزء الأول ص ٥٤٢ .

قدرهم . وعلى هذا فلما سمعت باريس بأن عكا قد سقطت ، وأن فيالق إبراهيم تكتسح بلاد الشام كالسيل الجارف ، كتبت وزارة الخارجية الفرنسية إلى قنصلها العام في الإسكندرية بما معناه :

« إذا كان الوالى يسره أن يعترف بما لرجال الفن والمهندسين والجنود الفرنسيين من فضل عليه ، فإننا نحن أيضاً نفخر بأننا قد ساعدنا على إنشاء دولة وإنماء قوة جديرة بالتعاون معنا ، ويهملها كما يهملنا أن تعمل لرخاء بلاد البحر الأبيض المتوسط . وستكون الحكومة الفرنسية في المستقبل كما كانت في الماضي ، دأمة الاستعداد لأن تبرهن للبasha على صداقتها وحسن نيتها »^(١) .

وليست هذه الرسالة إلا مثلاً من الرسائل السياسية البارة التي لا تدل عبارتها على شيء ، وقد يفهم منها أى شيء . وقد قال ميمو في رده عليها :

« إننا الآن نواجه أزمة من الأزمات العظيمة التي تتحكم في مصائر الدول ... لقد نشأت في العالم دولة عربية لها السيطرة على البلاد المقدسة ، وفيها مقر الخلافة (كذا) وهي دولة مركزها لا يرام ، بل تتقطع دونه الأعناق ؛ وليس في مقدور جنود السلطان محمود وأساطيله أن تقف في وجه محمد علي »^(٢) .

وهكذا وقفت روسيا موقف المتوعد ؛ وأخذ القنصل الفرنسي العام يستقعى ويبحث ، ونفض الإنجليز أيديهم من الأمر كله . وكان لهذا الموقف الذى وقفته تلك الدول الثلاث أثره في الخطة التي سار عليها محمد علي .

لقد كان في حربه مع السلطان يعمل بالقول المأثور عن الأصحاب المسيحيين (Quakers) « لن أؤذيك أو أمسك بسوء ، وكل ما سأفعله أن أشعر رأسك بشيء »

(١) « بعثة البارون بوالسكنت » : مصر والشام في عام ١٨٣٣ تأليف جورج دون طبعته الجمعية الجغرافية الملكية بمصر سنة ١٩٢٧ ص ١ .

(٢) دون في كتابه « بعثة البارون بوالسكنت » السالف الذكر ص ١١ .

من التعب » . ذلك أنه كان يؤكد دائماً أنه تابع أمين لمولاه ، وأنه لا يحارب الباب العالي ، وإنما يسعى للدفاع عن نفسه بتقوية تخومه .

وكان في قوله هذا صادقاً إلى حد ما ، كان صادقاً في أنه لم يكن يحاول خلع السلطان محمود ، أو يطمع في عرش السلطنة ، أو يرغب في تقطيع أوصال الدولة العثمانية . وكل الذي كان يسعى إليه في رأينا هو أن يؤسس في مصر دولة تحكم نفسها بنفسها ، عزيزة الجانب متسعة الرقعة ، تشمل مصر والشام وبعض الأقاليم المجاورة لها ، وأن تكون ولاية هذه البلاد الواسعة المستقلة له ولأسرته من بعده .

لقد كان محمد علي أصيل الرأي إلى درجة تقرب من أصالة الاسكتلنديين ، نافذ البصيرة في شؤون العالم إلى درجة منقطة النظير . وكان طموحا لا تقف به همته عند حد ، ولا تعوزه صفة من الصفات التي كانت يبغيها ولزي Wolsey^(١) ، لكنه كان قبل كل شيء رجلاً عملياً حاذقاً فطنا قوى الإدراك ، صرف كل جهده إلى ما يستطيع نيله . وكان حكيماً بعيد النظر لا يتعلق بالآمال الخداعة العزيزة المنال ، تسمو به نفسه إلى أعلى الدرجات ، ولكنه لا يبني آماله على شفا جرف هار . لا يخطو خطوة إلا بعد تدبر وإمعان ، يتبع في سياسته ذلك المبدأ المعروف « تبصر وقف واستمع » . وكان دائماً الاتصال بكل ما يجري حوله .

(١) الكردينال ولزي (١٤٧٥ — ١٥٣٠) وزير هنري الثامن ملك إنجلترا . ظل هذا السياسي يسيطر على شئون بلاده الدينية والسياسية ست عشرة سنة كاملة تتمتع فيها بسلطة لم يتمتع بها إنجليزي غيره قبله أو بعده إلا بعض الملوك . وقد استخدم في الوصول إليها والاحتفاظ بها كل وسيلة مستطاعة ومنها الكذب والرياء والخداع والفسوة والشراسة وشراء الضمائر . وكانت مطامعه لا تقف عند حد . أما الصفات التي يبغيها فهي التي يشير إليها شيكسبير في آخر الفصل الثاني من رواية هنري الثامن والتي يذكرها ولزي بعد سقوطه ويحذر منها صديقه كرمول وهي التي كان يتصف بها أيام مجده وأهمها الطموح وحب النفس وبغض الأعداء والحاسدين الخ . (المغرب)

وكان له وزير أرمنى يدعى بوغوص بك من أفراد الأسرة التى أنجبت أولئك الساسة الشرفاء الأفذاذ ، والتى كان منها نوبار باشا وزير الخديو إسماعيل . ولربما كان بوغوص « رائده وفيلسوفه وصديقه »^(١) ، لكنه هو كان على الدوام يقظا لا يفوته شئ مما يقال أو يحدث حوله ، عرف حقيقة قرقرة الوعيد الصادرة من القنصليتين الروسية والفرنسية ، وأدرك ما يمكن أن يتخض عنه سكوت الإنجليز . أما إبراهيم فكان بينه وبين دور تلك القنصليات مشات الأميال ، ولم يكن فى مقدوره أن يتعرف منها نيات الدول ؛ وكل ما كان يراه أمامه هو سهول الأناضول توحى إليه أن يجتازها مسرعا إلى الآستانة . وكان يرى العبارة المصرية تخوض عباب البحر الأبيض المتوسط ، وتتحدى أسطول الدول العثمانية ؛ وترسم فى مخيلته دولة عربية موطدة الأركان ، تعز بما تعز به الدول الإسلامية ، وهو امتلاك الحرمين ، ويصون استقلالها جيش مظفر . لقد نشأ إبراهيم فى جبل غير الذى نشأ فيه أبوه ، فلم يكن لاسم تركيا فى عقله تلك الروعة السحرية ؛ فلو أنه ذك أسوار الآستانة بمدافعه لدكها وهو آمن من وخز الضمير ؛ ولو أنه أراد أن يسوق السلطان إلى المنفى ، لفعل ذلك دون تردد ؛ ولو طالب إليه أن يشترك فى تقطيع أوصال الدولة العثمانية ، لما أعرض عن هذا المطالب أو ونى فى إجابته .

ولربما كان إبراهيم أنفذ بصيرة من أبيه العظيم ؛ وليس من شأننا نحن أن ندلى برأينا فى ذلك الموضوع ، فقد يكون هذا وقد لا يكون ؛ ولكننا نستطيع أن نقول إن ما يسميه الساسة « بالأمر الواقع » قد أتى بأعجب النتائج وأبعدها

(١) من قول يوب فى مقالاته الشهيرة فى الإنسان Essay on Man فى السطر ٣٩٠ من الرسالة الرابعة .

عن الظنون ؛ وأكبر ظننا أن الجيش التركي والأسطول ما كانا يقويان على منع إبراهيم من الوصول إلى أسكدار^(١) . ولو أنه وصل إليها لاستفتح باب الفتنة في الآستانة ، ولانتشرت الفوضى فيها ؛ وليس يبعد في هذه الحال أن يضطر محمود إلى اعتزال الملك . ولسنا نجزم أن الدول كانت تمنع هذه الحركة ، بل نشك كثيرا في أنها كانت تفكر في وقفها . نقول ذلك وأمامنا تقرير كتبه القنصل النمساوي في الإسكندرية إلى مترنيخ في ١٨ يونية سنة ١٨٣٢ يقول فيه :

« تسيطر روسيا في الوقت الحاضر على السلطان ، وفرنسا وإنجلترا تحسدان القيصر من أجل ذلك ، وتفضلان أن تريا محمداً عالياً على عرش السلطنة ، لأنه يستطيع أن يحمي موات الدولة العثمانية ، ويجعلها حصناً قويا في وجه روسيا »^(٢) . ولقد أوضح إبراهيم رأيه في رسائله لأبيه . فكتب أولى هذه الرسائل في ٥ شعبان سنة ١٢٤٨ وهو يقابل ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٣٢ . وكان محمد علي وإبراهيم يؤرخان رسائلهما بالتاريخ الهجري دائما ، وقد حولنا نحن هذا التاريخ وغيره إلى ما يقابله في التقويم الجريجوري لمنع اللبس والاضطراب . وسنضرب صفحا عن هذه الرسالة الأولى ، وننتقل إلى رسالة أخرى بعث بها إبراهيم في ٢٠ يناير سنة ١٨٣٣ إلى محمد علي ، يبلغه أن إدارة مخابراته نقلت إليه أن طريق الآستانة مفتوح أمامه ، وأنه لا توجد في هذا الطريق قوة حربية تقف في وجهه . ثم انتقل من هذا الكلام إلى السياسة العليا فقال :

« في استطاعتنا أن نعقد صلحا شريفاً بوساطة رفعت باشا ، ولكن أكبر

(١) تقرير مرسل من الآستانة إلى وزارة الخارجية في حكومة بيدمنت ومؤرخ ٢٥ أغسطس سنة ١٨٣٢ وقد جاء فيه بصريح العبارة أن لا شيء يستطيع أن يمنع إبراهيم من الزحف على الآستانة . انظر سماركو في كتابه السالف الذكر جزء ١٠ ص ١٦٢ .

(٢) سماركو في كتابه السالف الذكر جزء ٩ ص ٣٥٤ .

ظنى أننا لا نستطيع أن نحسم هذا النزاع القائم بيننا حسماً نهائياً ، أو نضع قواعد صلح دائم ما بقى السلطان محمود ، ذلك الشيطان الخبيث ، جالساً على العرش . . . لذلك لا أرى بداً من الرجوع إلى عزمنا الأول ، فنخلع ذلك الرجل الشرير ، ونستبدل به ولى العهد . وإذا فعلنا ذلك فسيهز هذا القرار الخطير تلك الأمة هزاً عنيفاً يوقظها من سباتها » .

وفى هذا دليل على أن إبراهيم كان يرى أن يتذرع بأشد الوسائل لتحقيق مطالب أبيه ، ولكنه لم يكن يشير على محمد على بأن ينتزع صولجان الملك من يد السلطان ، بل كان يرضى كل الرضا أن تظل الآستانة عاصمة الدولة العثمانية ، وأن يبقى بنو عثمان جالسين على العرش . غير أنه كان يدعو إلى العمل السريع الحاسم . ومما يدل على حذقه السياسى الفقرة الآتية التى تلى الفقرة السالفة فى رسالة إبراهيم :

« ولرب معترض يقول إن أوربا لا توافق على اقتراحى هذا . وجوابى أننا يجب علينا أن نقدم على العمل دون إبطاء ، قبل أن تدرك أوربا شيئاً من أغراضنا . فخطئى كلها قائمة على الإسراع فى العمل حتى نتمه قبل أن تتدخل أوربا فى الأمر ؛ وإذا وجدت الدول الأوربية نفسها وجهاً لوجه أمام النتائج التى سنصل إليها ، ثم تذرعت بهذه النتائج لتقسيم الدولة العثمانية ، فهل نلام نحن على ذلك ؟ وهل فى وسعنا أن نحول بينهم وبين تحقيق حلمهم الذى ظل ماثلاً أمام أعينهم أربعة وثمانين عاماً كاملة ؟ وقانا الله السوء ! ومع ذلك أليس الخير أن يتحقق الآن ما لا بد أن يتحقق فى يوم من الأيام ، حتى يسهل حل تلك المشكلة التى تمسنا فى الصميم ؟ » ^(١) .

(١) المحفوظات الملكية المصرية بسرارى عابدين بالقاهرة القسم التركى .

هذا ما كان يفكر فيه إبراهيم . أما محمد علي فكان يرجو المستحيل ، كان يرجو أن يسوى أمره مع السلطان ؛ ولذلك كان من رأيه أن لا يتعجل إبراهيم الحوادث ، وبخاصة لأن تقدم الجيش المصرى السريع كان يحتم عليه الآن أن يتريث حتى تنظم ثمار الفتح . ولو أن سبل الانتصارات الجارف ظل متدفقا في سيره دون تمهل ، لما كان ثمة حاجة إلى هذا التريث . ولكن رغبة الباشا في أن لا تتعسر الأمور على رجال السياسة ، بسبب أعمال ولده ، جعلت إبراهيم يقف موقف الدفاع أربعة أشهر كاملة بعد موقعة ممر بيلان (٢٩ يولية سنة ١٨٣٢) . وبينما كان هذا القائد النشط واقفاً موقف الانتظار ، وجه عنايته إلى المسائل الإدارية ؛ فقسم الشام ثلاث مناطق جعل مراكز الحكم المدنية والعسكرية فيها حلب وصيدا ودمشق^(١) . واستتب الأمن والنظام في أنحاء البلاد بفضل سياسته المتنورة . وخير شاهد على هذه السياسة إعلانه المؤرخ ٥ أغسطس سنة ١٨٣٢ الذى نشره على أهل الشام لما دخلت جنوده بيت المقدس والذى يقول فيه :

« فى القدس من المعابد والآثار ما يجعلها كعبة يحج إليها المسيحيون واليهود من أبعد الأقطار . ومن حق جموع الحجاج أن يشكروا من الضرائب الفادحة التى تفرض عليهم وتجبى منهم فى الطرقات العامة . وقد صحت عزيمتى على إلغاء هذه العادة ، ولذلك أمر الحكام المسلمين فى ولاية صيدا ومراكز القدس وطرابلس وما جاورها من المناطق الواقعة على البحر الأبيض المتوسط ، أن يمتنعوا عن جباية الضرائب على اختلاف أنواعها ، سواء منها ما كان يجبى فى الطرق أو فى غيرها من الأماكن .

(١) سماركو فى كتابه السالف الذكر جزء ١٠ ص ٢٣١ .

« وكذلك أدعو جميع الحكام المحليين أن لا يفرضوا ضرائب غير مشروعة على رجال الدين المسيحيين ، الذين يؤمنون الأما كن المقدسة ليؤدوا شعائر دينهم » ^(١) .

ولو أن مرسوماً كهذا أصدر بعد أن ساد السلام واطمأن الناس شهوراً عدة ، لكان دليلاً على أن صاحبه قد أشبعت نفسه روح التسامح والحرية ؛ فما بالك وهو صادر وسط دوى المدافع وقعقة السلاح ؟ إنه ليدل على أن الذى أصدره كان رجل حرب وسياسة ، يدبر الحركات الحربية بعقله ، ويعطف على الناس بقلبه .

ولم يغفل إبراهيم عن الضرب على أيدي رجال الحكم فى الشام ، ومنعهم من سلب أموال الناس . وذلك لأنه كان يشعر أن احتلال الشام سيكون احتلالاً أبدياً ، فعمل على إنقاص الفوائد الباهظة التى كان يتقاضاها الجباة ووكلاء الأعمال والصيارفة . وخصص جزءاً من النهار لاستقبال الناس وتلقى ملتمساتهم . وجاءه يوماً من الأيام رجل مسن من أهل الجبال وألحف فى السؤال ، فقال له إبراهيم فى آخر الأمر : « لقد قرأت اليوم نحو مئتين ملتمس ، فمن حق أن أتمتع بقسط من الراحة ؛ ولكن ثقبانى سأعنى بفحص ملتمسك » .

واغتنم أهل الناصرة عطف إبراهيم وشكوا إليه قسوة حاكمهم ، فأمره إبراهيم أن يقدم حسابه ؛ ولما ثبت له أنه قد ابتز منهم ستة آلاف قرش فوق ما يجب عليهم أدائه ، حكم عليه فى الوقت والساعة بالسجن مع الأشغال الشاقة اثني عشر شهراً فى قلاع عكا ^(٢) .

(١) المصدر عينه جزء ١٠ ص ١١٤ .

(٢) يانس فى كتابه السالف الذكر جزء ٢ ص ١٧٧ .

ويخيل إلينا أن إبراهيم في خلال الشهور التي قضاها في النظر في أمور أهل البلاد التي أخضعها الله لسلطانه ، كان هو ومحمد علي يرجوان أن تتمكن العمارة المصرية من تحطيم الأسطول العثماني . ولقد سبق القول أن محمداً علياً كان شديد الدهاء واسع الحيلة ، ولذلك لا نستبعد أن يكون قد هداه تفكيره إلى هذه الخطة التي سنعرضها هنا ، لا على أنها حقيقة مقطوع بصحتها مؤيدة بالدليل ، بل على أنها مجرد ظن منا قد يكون صحيحاً وقد لا يكون : يخيل إلينا أن الباشا لم يكن يشك في أن الباب العالي حصر كل همه وتفكيره في جيش محمد علي ، واعتقد أنه ما دام هو قادراً على منع إبراهيم من التقدم ، فإن السلطان يقبل التفاوض معه . ولذلك رأى أن ينتهز فرصة انهماك الآستانة في أمر إبراهيم وشدة بطشه ، فتباغت العمارة المصرية الأسطول العثماني وتحطمه ، فيزداد بذلك مركزه قوة على قوته . والذي يجعلنا نعتقد بصحة هذا الرأي أن محمداً علياً كان شديد الإيمان بفائدة القوة البحرية ، ولذلك لا نستطيع أن نتصور أنه كان يقنع ببقاء أسطوله معطلاً في هذا الوقت الخطير . وتدل أوراق سماركو على أن القنصل النمساوي العام في الإسكندرية كتب إلى مترنيخ في ٢٠ يونيو سنة ١٨٣٢ يبلغه أن :

« تفوق أسطول محمد علي على أسطول الأتراك أصبح أمراً لا شك فيه ، وأن ضباط أوروبا البحريين كلهم مجمعون على ذلك . فإذا نظرنا إلى مصير الحرب من هذه الناحية لم يخالفنا شك في أنها ستكون وبالا على الأتراك » ^(١) .

وفي الرسائل التي بعث بها القناصل إلى بلادهم إشارات كثيرة إلى حركات الأسطولين ^(٢) . ومثال ذلك التقرير المؤرخ ١٠ سبتمبر سنة ١٨٣٢ فإنه يؤكد

(١) سماركو في كتابه السالف الذكر جزء ٩ ص ٣٣٧ .

(٢) المصد عينه جزء ١٠ ص ٤٥ ، ٨٣ ، ١١٣ ، ١٢٠ .

هذه الحقيقة البادية للعيان وهي أنه « لو أظهر الأسطول المصرى ما أظهره الجيش لقضى على الدولة العثمانية »^(١) . وذكرت في تقرير آخر تلك العبارة الخطيرة وهي أن « الأسطولين يرقب كلاهما الآخر ولا يجروا على مهاجمته »^(٢) . وإذا قلبنا صحف كدلفين وبرو وهما كاتبان معاصران دقيقا الملاحظة يقول فيهما جان مارى كريبه Jean-Marie Carré إنهما « سأنحان منزهان عن الهوى واسعا الاطلاع »^(٣) ، إذا قلبنا صحفهما وجدنا فيها تفسيراً لهذا المسلك الغريب الذى سلكه أمير البحر المصرى ، ورأينا فيها صورة تكاد تمثل لنا الشرق القديم أصدق تمثيل .

وكان هذا الضابط الذى تلقى الأمر بالبحث عن العدو ومهاجمته^(٤) ، ولكنه لم ينفذ ما أمر به ، هو عثمان نور الدين ابن أحد خدام محمد على الخاملى الشأن . وقد نال نور الدين بذكائه النادر المبكر حب محمد على ، فعنى بتعليمه وعينه بعد ذلك كاتباً فى القلعة . ثم صار فيما بعد مدرساً ، ولكنه ارتكب ذنباً خطيراً أحفظ عليه محمداً علياً فحكم عليه كما تقول إحدى الروايات بالموت غرقاً . ويقال إنه وضع فى زكينة وجيء به إلى نهر النيل ، فراه رجل فارسى من موظفى المطبعة الأهلية ، فرشا القواص الذى عهد إليه بتنفيذ الأمر ، وأخذ منه نور الدين وأخفاه عنده ، ثم شفع له عند الباشا فعفا عنه وضمه إلى إحدى البعثات المدرسية ، وأرسل إلى إنجلترا وفرنسا وإيطاليا ليتم تعليمه .

(١) المصدر عينه جزء ١٠ ص ١٩٧ .

(٢) المصدر عينه جزء ١٠ ص ٢٩٨ .

(٣) السياح والكتاب الفرنسيون فى مصر مطبعة معهد الآثار الفرنسى الشرقى بالقاهرة .

١٩٣٣ .

(٤) سماركو فى كتابه السالف الذكر جزء ١٠ ص ٦٤ . انظر أيضاً تاريخ الحرب

بين محمد على والباب العالي طبعة آرثر برتران بياريس ١٨٣٧ ص ٢٢٠ .

ولما كان في أوروبا كسب عطف جميع من عرفوه ، واستطاع أن يتقن بسهولة مظاهر الثقافة الغربية الخلاقة ، وتعلم اللغات الأوروبية بسهولة أثارت الإعجاب . ثم عاد إلى مصر وكان بعد عودته يعد نابغة في علم الغرب ومثلاً أعلى للشرق المتصف بصفات أهل أوروبا . وفتحت أمامه أبواب الرقي ، وأصبح مابجاً للناس في المهمات ، ومازال يرقى في مناصب الدولة رقياً سريعاً لا يكاد يصدق العقل ، حتى وصل في قليل من الزمن إلى رتبة القائد الأكبر للقوات البرية والبحرية ، لا يعلو عنه في المرتبة إلا إبراهيم . ثم عين بعدئذ أميراً للأسطول المصري ، فتهيأت له بذلك الفرصة ليبرهن على كفايته . لكنه لأمر ما أضعاف الفرصة التي سنحت له للاشتباك مع العدو ، وقنع بالإحداق به والترصد له ، ورغب عن منازلاته وأسرره . ولا ندري أكان ذلك راجعاً إلى قلة أكترائه بخطط ولى نعمته ، أم لعدم كفايته ، أم خور عنيمته ، أم غدرة وخيانتته ^(١) .

إن النبات الدخيل لا يقوى على احتمال ما يحتمله النبات الأصيل . ولقد كان إبراهيم شرقياً أصيلاً ، تربى تربية شرقية ، وكان يتكلم اللغات التركية والعربية والفارسية ، وكان ملماً بتاريخ الشرق ومثقفاً ثقافة شرقية خالصة ، وإن كان يلوح أنه تعلم شيئاً من اللغة الفرنسية فيما بعد ^(٢) . لذلك لم تفتنه المظاهر الخلاقة ، واختبر فكان صادق الخبر ، بعكس نور الدين فقد كان هو الرجل الذي لا يتورع عن قبول الرشا .

وقد أشار مورييه إلى « الغدر الكامن في صدر نور الدين ^(٣) » ، ولكنه

(١) كدلقين وبرو في كتابهما السالف الذكر ص ٢٣٣ .

(٢) بريس دافن وآرمن في كتابهما السالف الذكر ص ٣٨ .

(٣) مورييه في كتابه السالف الذكر جزء ٣ ص ١٩٧ ، انظر تاريخ نور الدين في

(المغرب)

الجزء الثالث من تاريخ الحركة القومية لعبد الرحمن بك الراجحي

لا يورد دليلاً يؤيد به هذه التهمة ، مثله في ذلك مثل كدلفين وبرو ؛ ويؤكد كذلك أن هذا القائد كان جباناً ، وقد يكون صادقاً في هذا التأكيد ؛ ويروي أن إبراهيم كان يزدرية أشد ازدراء ، ولم يغفر له قط تمكنه الأسطول العثماني من الحرب ^(١) . ويخيل إلينا ، في ضوء ما لدينا من المعلومات ، أن الباب العالي أدرك ما يرمى إليه محمد علي ، وعرف كما عرف الوالي أهمية انتصار الأسطول المصري في البحر ، ولذلك أخذ يغري نور الدين حتى رأى من مصلحته أن يكون جباناً .

وفي الخامس والعشرين من شهر أكتوبر سنة ١٨٣٢ كتب السفير التركي في الآستانة إلى وزير خارجيته يبلغه أن الأسطول العثماني قد ألقى مراسيه في الدردنيل ، وأن السلطان أخذ يحيش جيشاً جديداً بقيادة الصدر الأعظم رشيد محمد باشا . ومعنى هذا أن مهزلة الحرب البحرية قضى عليها ، وأن المسألة المصرية تطورت تطوراً جديداً . وجاء في رسالة أخرى أن القائد العثماني العام رجل في منتهى النشاط والذكاء والشجاعة . واسنا نشك في صدق هذا القول ؛ فلو أن رشيداً باشا كان ينازل خصماً أقل من إبراهيم بقضة وبأساً وكفاية ، لأثبت بالفعل صحة هذا الوصف . لكن قاهر عبد الله لم يستطع له روعاً حينما نزل الصدر الأعظم إلى الميدان وزحف برجاله نحوه ، بل قابل إبراهيم هذا الزحف الشبيه بزحف رتشمند Richmond ^(٢) بإصدار الأوامر إلى جيشه بأن يتقدم نحو قونية حيث تلتقي الطرق الآتية من الشام وآسيا الصغرى ، ثم تسير إلى الآستانة على بعد مائة فرسخ إلى غربها ^(٣) .

(١) المصدر عنه جزء ٣ ص ١٩٨ .

(٢) هنري نيودر إرل رتشمند (١٤٥٧ — ١٥٠٩) من النبلاء الانجليز أيام حرب الوردتين هاجم الجيوش الانجليزية وانتصر عليها في موقعة بزورث واستولى على العرش وسمى هنري السابع وهو مؤسس أسرة نيودر الانجليزية . (المغرب)

(٣) في الأصل الإنجليزى إلى الشرق وذلك سهو من غير شك .

وبدا أن لا بد من اشتباك الفريقين في موقعة فاصلة ؛ وأرسل قيصر روسيا فرقاطة روسية تدعى العلم إلى الآستانة ، تقل سفيراً خاصاً هو الجنرال مورافيف General Muraviev ، ليعرض على السلطان معونة القيصر الحربية . ولكن إبراهيم لم ينتظر حتى تتم هذه الدسيسة السياسية ، بل خف من فوره وزحف على عدوه ، حتى أقبل عليه في ٢١ ديسمبر سنة ١٨٣٢ . فرأى الجيش التركي جيشاً عرمرماً يفوق جيشه في كثرة العدد . وحدث أن تلبدت السماء بالسحب فانتهاز إبراهيم هذه الفرصة ليخفي عن العدو حركاته ؛ ولم ينتشع الضباب إلا بعد أن حاقت الهزيمة بالجيش العثماني ، وأمسى المساء وإذا بالقائد العثماني رشيد محمد باشا أسير في أيدي المصريين ، وإذا الطريق إلى الآستانة مفتوح أمام إبراهيم .

ولم يغفل إبراهيم حتى في ساعة النصر عن خطة والده السياسية . ومع أنه رأى الصدر الأعظم أسيراً في يديه فإنه لم ينس واجبه لأبيه . فنظر إلى أسيره نظرتة إلى مثل جلالة السلطان رئيس الدولة الأعلى ، ورد إليه سلاحه الذي كان قد انتزع منه في خلال النهار ، ثم سار بنفسه نحو عدوه المغلوب ليقدم له واجب الإجلال ؛ وأصر على أن يكون للمشير العثماني المسكان الأول . ولما كان القائد المصري قد أظهر نحو عدوه إجلالاً لا يتفق بحال مع موقفه في ذلك الوقت ، فقد ظن رشيد باشا أن في الأمر مكيدة مدبرة له . فلما قدمت له القهوة قال إنه في حاجة إلى الماء ، وإنه يفضل تناول قرح منه . فلما عرض عليه شراب محلى رفضه وكرر طلب الماء ، وذلك لأن الماء يتغير لونه إذا وضع فيه السم . وعندئذ أمر إبراهيم أحد رجاله بأن يحضر الشراب ؛ فجاء بالشراب المثلوج الملون على الفور وقدم للصدر الأعظم ؛ ف شعر عندئذ بأن المنية قد وافته ، ومديده

وهو رابط الجأش . فمنعه إبراهيم من تناوله ، وأخذ القدح بيده ، ورفع به إلى فمه وشرب مما فيه ؛ وعلت شفاته ابتسامه الظفر والازدراء ؛ وكذلك ظل القائد التركي ثابتاً رزيناً . ولما شرب إبراهيم نصف ما في القدح ناوله إلى الصدر الأعظم ، فشرب ببقيته . ولم يتبادل الرجلان حديثاً في أثناء هذه الحفاوة حتى إذا ما فرغا منها كان كل منهما قد وثق بصاحبه واطمأن له ^(١) .

وبلغ من شدة حرص إبراهيم على جميع مظاهر الخضوع للصدر الأعظم أنه أصر على اعتباره القائد الأعلى للجيش المصرى ، حتى أنه لما أصدر الأمر للجيش في اليوم الثانى بعد الموقعة بأن تتعقب العدو المنهزم أصدرها باسم أسيره . وما كان أجدر الصدر الأعظم أن يردد فى ذلك الحين هذا القول المأثور : « الصوت صوت يعقوب ولكن اليمين يدا عيسو » ^(٢) .

(١) كدلقين وبرو فى كتابهما السالف الذكر ص ٣١٥ .

(٢) نكوين ٢٧ : ٢٢ .